اللغة في منهج الشيخ اطفيَّش التفسيري
قراءة في كتابه "تيسير التفسير"

الدكتور يحيى صالح بوتردين

المركز الجامعي غرداية

مقدمة:

لقد كانت لي منذ ما يزيد عن عقد من الزمن وقفة متأنّية مع الشيخ اطفيَّش باعتباره مفسّراً، من خلال كتابه **تيسير التفسير** محاولا استكشاف منهجه وأدواته في التفسير[1]، فألفيته كتابا في حاجة إلى أكثر من دراسة، إذا أردنا التعرف أكثر على خصائص شخصية القطب اطفيَّش العلمية، باعتباره عَلَما من أعلام التفسير في الجزائر والمدرسة الإباضية في ذات الوقت. و من هذا المنطلق وددت أن يكون لي إسهام في مجلّة الحياة بمقال أجعله للتعريف بجانب من شخصية هذا المفسّر الفذ، من خلال الوقوف على الجانب اللغوي في تفسيره، رغبة في استجلاء هذا الطابع المميّز للشيخ اطفيش من جهة وكذا إفادة القارئ بما يمكن أن يفتح أمامه آفاقا للبحث في هذا المجال الخصب والمفيد.

ولقد اعتمدت لذلك خطة منهجية تقوم على ثلاثة عناصر، أولها للحديث عن جملة من السِّمات التي تطبع منهج الشيخ في التفسير عامة وفي كتابه "**تيسير التفسير**" خاصة، جعلته **بعنوان الخطوط العريضة لطريقة الشيخ اطفيَّش في التفسير**، حيث أتحدّث فيه عن بعض أدواته ومصادره التفسيرية، وثانيها للحديث عن مصدر من هذه المصادر ألا وهو اللغة، وقد جعلته بعنوان: **اللغة في منهج الشيخ اطفيش التفسيري**، وأخيرا أفردت العنصر الثالث للحديث عن قضية التأويل وصلتها باللغة عند الشيخ، وقد جعلته

1- كان ذلك في سنة 1989، في بحث تقدمت به إلى جامعة عين شمس بالقاهرة لنيل درجة الماجستير في الآداب، عنوانه: الشيخ اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم بالمقارن إلى تفسير أهل السنة. وهذا المقال مستوحى منه مع زيادة وتنقيح

وراء التفسير اللغوي المتعمق جاء من فرط حبه للغة العربية وولعه الشديد بها، فقد علمنا من خلال تتبع مراحل حياته[1] أنّه كان شديد الاهتمام بالدرس النحوي خاصة. وإذا هو يقلب الآية على وجوه اللغة المحتملة، نراه يستعين بما يجده من أثر وروايات في تفسيرها، فهو يستفيد من القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من الأدوات التفسيرية، كلّما وجد إلى ذلك سبيلا، في حين يكتفي بالشرح اللغوي إذا لم يجد نقلا أو كان ذلك النقل ضعيفا. فنراه ينقد بعض الروايات أحيانا، ويرد بعض التفسيرات التي قرأها عند المفسرين المتقدّمين، ويرجع إلى أساليب اللغة العربية والشعر القديم فيبحث فيهما عن المعنى الصحيح للآية المراد تفسيرها.

ولا يكتفي الشيخ اطفيّش بتفسير معاني الآيات أو الألفاظ القرآنية شرحا وتوضيحا فقط، بل تنكشف لنا ألوان شتى من شخصيته العلمية، التي تَنمّ عن موسوعية ثقافية يتمتع بها رحمه الله، فهو يتوقّف أحيانا عند آيات الأحكام، فيبيّن المسائل الفقهية التي تتعلق بهذه الآية أو تلك، كما يتوقف أيضا عند الآيات التي تتعلّق بقضايا العقيدة فيشرحها باستفاضة، وربما استوقفته بعض الآيات التي يُثار حولها خلاف فكري، فيبيّن رأي مذهبه في تفسيرها، كما يحاول أن يستعرض آراء المذاهب الإسلامية الأخرى ويقارن بينها وبين رأي مذهبه، فيردّ على بعضهم ممن يرى قصورا أو ضعفا في دليلهم، ثم يبيّن الدليل الذي يعتقده أقوى وأصح، وهكذا..

ومما يلاحظه القارئ في "**تيسير التفسير**" أن موقفه من المفسرين الذين يأخذون بمجرد الرأي والهوى، يتسم بالشدة والعنف أحيانا، وذلك مثلما يفعل مع الخوارج[2]. أما عند

1- جمع تفاصيل حياته في: **رسالتنا للماجستير** (1989)، ص 35 وما بعدها. مصطفى وينتن (1996)، **آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية**، ص 23 وما بعدها. أحمد حيلايلي (2001)، الجهود اللغوية عند محمد بن يوسف اطفيش، -دكتوراه الدولة- ص 11 وما بعدها.

2- نظر موقفه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة، آية 44. يراجع: اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 2، ص 93.

تناوله الآيات التي تحمل القصص القرآني، فهو يتأرجح بين موقفين مختلفين: أحيانا يظهر بصورة الناقل الأمين الذي لا يترك شاردة ولا واردة نطق بها أهل الأخبار إلا وساقها، وإن كانت مخالفة للعقل، وأحيانا يظهر في صورة الناقد المتمرّس الدقيق، الذي لا يثق في جلّ الأخبار والآثار الواردة إليه في ذلك. وخاصة إذا شاهد فيها تعارضا صارخا. ولذلك نراه يشك في صحتها وربما يناقشها، وإن لم يجد فإنّه يذيّل تلك القصة أو تلك الآثار بعد أن يورد تفاصيلها بقوله: "والله أعلم بصحتها"، أو نحو ذلك

هذه بعض الخطوط العريضة لطريقة الشيخ اطفيّش في التفسير عامة ومن خلاله كتابه تيسير التفسير خاصة، أمّا وأنّ الذي يهمّنا هنا هو الجانب اللغوي في تفسيره، فلسوف تكون الفقرات الموالية خاصّة باستجلاء بعض الملامح الخاصة بالطابع اللغوي في منهجه التفسيري، فماذا عن اللغة في تفسير الشيخ اطفيش إذن؟

2- الطابع اللغوي في منهج الشيخ اطفيش التفسيري

لقد كان طبيعيا أن ينطبع تفسير الشيخ اطفيّشْ بشيء من لوازم ثقافته، فكانت اللغة وعلومها المختلفة من نحو وصرف وبلاغة، ظاهرةً في منهجه التفسيري. والمتتبع لتفسيره يجد مباحث لغوية عديدة حاول الشيخ أن يسبر من خلالها أغوار الألفاظ والتعابير القرآنية، مستعينا بآراء كبار علماء اللغة المشهورين، أمثال أبي عبيدة، والفراء، والزجاج، وغيرهم[1]. وكان يهتم كثيرا بالجانب ا لإعرابي في القرآن الكريم، انطلاقا من كون الإعراب أداة مساعدة على استجلاء المعنى وتوضيحه[2]. ولما كان رحمه الله، يقرر درس التفسير على طلابه كمادة علمية تكوينية، فإنّه كان حريصا على هذا الجانب،

1- نظر على سبيل المثال لا الحصر: اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 1، ص 128/188/710. - ج 2، ص 838. - ج 3، ص 902/905 ... وغيرها.

2- نظر: السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج 2، ص 260. – سميح عاطف الزين، **الإعراب في القرآن الكريم**. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص 7 وما بعدها.

وربما اهتم بتبسيط أسلوبه في "تيسير التفسير" ليكون في متناول كلّ قارئ من جهة، ولكن دون أن يفقد الكتاب طابعه التعليمي من جهة أخرى[1].

• **الجانب الإعرابي**: إنّ أول ما تقع عليه عين القارئ وهو يطالع صفحات "تيسير التفسير" هو الجانب الإعرابي، أو بعبارة أخرى، الجانب النحوي، ومع ذلك فالشيخ محمد بن يوسف اطفيّش لم يكن يسلك في هذا الكتاب نفس الطريقة التي كان يسلكها في كتابيه السابقين، بالنسبة لهذا الجانب. فهو لا يسترسل مطوّلاً وراء التفريعات النحوية إلا نادرًا، بل قد جعل همّه الأساسي هو استجلاء المعاني وتوضيحها عن طريق فك الرموز النحوية للجملة القرآنية، وبيان الموقع الإعرابي للكلمات، وإن كان مع هذا كلّه لا يُهمل الجانب التعليمي الذي يقصد به إفادة تلاميذه.

فلو أخذنا تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ**﴾[2]. وجدناه يورد احتمالين في إعراب الضمير "هاء" من كلمة "مثله"، إذ الإعراب هنا وجه من وجوه التفسير، وهذا يدلنا على اهتمامه بالنسق المعنوي للآية القرآنية[3]. فالضمير "هاء" في "مثله" كما هو واضح هو مفتاح المعنى في هذه الآية، إما أن يعود إلى القرآن، أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وذلك كما في الآية التي تسبق هذه والتي يقول فيها سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾[4].

1- القارئ في "**تيسير التفسير**" يجد أدلة واضحة على أنّه تفسير موجّه أساسا للتعليم، وليس لعامة الناس، من بين ذلك، بعض العبارات التي يستعملها الشيخ اطفيّش وهي توحي بأنه قالها من أجل غاية التعليم. فهو بعد أن يقرر قاعدة لغوية، أو تفسيرا معيّنا، فإنّه ينهي كلامه بعبارة (ولا أعيده)، وكأنّه يحث طلابه على الاهتمام.

ينظر: اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 1، ص 128.

2- سورة البقرة، آية 23.

3- ينظر: **تيسير التفسير**، ج 1، ص 27/26.

4- سورة البقرة، آية 22.

وإذا كان الشيخ اطفيّشْ يهدف بإيراد مختلف الوجوه الإعرابية المحتملة، إعطاء القارئ أكثر قدر ممكن من الأدلة على ما يمكن أن تُفسَّر به الآية، فإنّه يفعل ذلك أيضا من أجل غاية تعليمية، كذلك، بدليل أننا نجده أحيانا يتقمص شخصية معلّم اللغة العربية لا المفسر. من ذلك مثلا، تفسيره للآية الكريمة من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾[1].

الجانب الصرفي: ويمتد اهتمام الشيخ اطفيّشْ بالناحية اللغوية إلى مسائل تتعلق بعلم الصرف أحيانا. ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[2]. حيث يقف بنا مطوّلا عند لفظ **أشياءْ** ويفصّل الكلام في بناءه الصرفي تفصيلا تعليميا، ربّما كانت الآية في غير حاجة إليه[3]. وقد يصرف القارئ العادي عن فحوى الآية الكريمة وهدايتها، ولهذا كان من العلماء من رفض أن يتعلق المفسرون بمثل هذه التطبيقات اللغوية في كتب التفسير[4].

ومن أمثلة ذلك أيضا تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾[5].إذ يتوقف عند كلمة **اُضطرْ** ليفصّل القول في المعنى الذي اكتسبته الكلمة وهي على هذه الصيغة[6].

1- سورة النساء، آية 26. ينظر: **تيسير التفسير**، ج 1، ص 715.

2- سورة المائدة، آية 101.

3- اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 2، ص 175/174.

4- لقد اعتبر الإمام محمد عبده هذا الجانب من حلّ الألفاظ وإعراب الجمل، مما يجعل التفسير جافا مبعدا عن المقصود. ينظر: أمين الخولي، **التفسير ، نشأته تدرجه وتطوره**، ص 70.

5- سورة البقرة، آية 172.

6- ينظر: **تيسير التفسير**، ج1، ص 218.

ولعل من المفيد هنا أن نذكر أنّ الشيخ اطفيَّشْ حين يورد تلك المعارف اللغوية، فإنّه لا يوردها عبثا، بل ربّما كان يهدف إلى إقناع القارئ بكثرة الأدلة والتفريعات العلمية. إلاّ أنّه لا يخفى تأثره بوظيفته **التعليمية**، مما جعله يستطرد في إجراء **التطبيقات اللغوية** بدون حدود أحيانا. وذلك حين وجد أن **النص القرآني** يعد مجالا خصبا لذلك. وربّما كانت هذه التطبيقات اللغوية مفيدة للقارئ الجزائري في فترة ما من فترات –عصر الاستعمار خاصة– لأنّها تساعده على إرساء وترسيخ قواعد اللغة العربية في ذهنه.

• **الجانب البلاغي:** إنّ الشيخ اطفيَّش يولي اهتماما كبيرا لدلالة اللفظ حالة وقوعه للحقيقة أو المجاز. وبيّن أثر ذلك في السياق. ففي قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾[1]، يعلق على لفظ "كُتِبَ" الذي انتقل من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، ثم أصبحت هذه الدلالة المجازية له حقيقية بالعرف[2].

وفيما يتعلق بوقوع المجاز في التعبير القرآني نجد الشيخ اطفيَّشْ في تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤمِنِينَ() يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾[3]. يحاول أن يجد تفسيرا مجازيا للفظ "يخادعون" حيث إن مخادعة الله هنا ليست على الحقيقة، لتنـزهه تعالى عن ذلك، فلا يُتصور أن يخادع المخلوق خالقه[4].

ونجد الكتاب مليئا بالصور البلاغية القائمة على المجاز بأنواعه المختلفة، مع تحليلات مفيدة لبيان المعنى وتوضيحه، ومن أمثلة هذه الصورة نذكر ما يلي:

1- سورة البقرة، آية 178.

2- ينظر: **تيسير التفسير**، ج1، ص 226.

3- سورة البقرة، الآيتان 9/8.

4- ينظر: **تيسير التفسير**، ج 1، ص 11.

ففي تفسير قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[1]. يفيدنا المفسر بأن "الحرث" هنا كلمة مستعارة على سبيل التشبيه البليغ، أو الاستعارة التصريحية، أو التمثيلية[2]. وقد نجده أحيانا لا يحدد نوع الصورة البلاغية للآية القرآنية بتاتا، إذ يكتفي بشرحها من أجل بيان معناها فقط. ومثال ذلك نقرأه في تفسير قوله تعالى من سورة النبإ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[3]. فكون الشيخ اطفيّشْ يهدف إلى بيان معنى الآية جعله لا يُولي اهتماما كبيرا للتحليل البلاغي للآية الكريمة، كما رأينا في المثال السابق، وهذا يدلّ على أنّه رحمه الله، لم يكن يهتم بالجانب البلاغي بمثل اهتمامه بالجانب النحوي الإعرابي، من حيث التعمق في التحليل وذكر المصطلحات العلمية الخاصة بهما.

• **استشهاده بالشعر**: ومن المباحث الهامة في تفسير القرآن الكريم باللغة، أن يبحث المفسر في ديوان العرب لعلّه يجد فيه ما يفسر الغريب والمشكل من ألفاظ القرآن الكريم، باعتبار أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم. وذلك أسوة بما فعله الصحابة رضوان الله عليهم، فقد قال عبد اللـه بن عباس فيما رواه عنه السيوطي: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآ، الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه..»[4].

إلا أن الشيخ اطفيّشْ لم يتسغل ثراء ديوان العرب في تفسيره كما استغل ثراءهم تراثهم النحوي والبلاغي، فهو قد استشهد بجملة متواضعة من الأشعار جاءت مبثوثة في مواطن مختلفة من تفسيره، وكان يقصد من إيرادها إلى أكثر من هدف؛ فهو عادة

1- سورة البقرة، آية 221.

2 - اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 1، ص 313/312.

3- سورة النبأ، الآية 10. ينظر: **تيسير التفسير**، ج 6، ص 462.

4- السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج 2، ص 55.

يستشهد بها على سبيل الاستئناس خدمة للمعنى من حيث بيانه وتوضيحه، وأحيانا أخرى يأتي بها من أجل الاحتجاج في المسائل اللغوية أو البلاغية أو غيرها.

ومن أهم الأمثلة التي استوقفتنا فيما يتعلق بهذا المصدر التفسيري، تلك التي تبيّن اهتمام الشيخ اطفيّشْ بقواعد الاستشهاد بالشعر، وإن كانت هذه الأمثلة تعدّ نادرة بالنسبة لغيرها. فهو يبدو فيها حريصا على تأصيل المعنى وتأكيده من خلال استعراض نموذج من أشعار العرب، وربّما لا يذكر اسم الشاعر وهو الغالب ولكن الأبيات التي يوردها لا تخرج عن المراد.

نذكر من ذلك استشهاده ببيت شعر على لغة طي، نسبة لشاعر منهم لم يذكر اسمه، وقد جاء به من أجل بيان معنى الزمهرير، في قوله تعالى: ﴿**لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا**﴾[1]، وهذا البيت يقول:

ولَيْلَةٍ ظلامُها قدِ اعتكَرْ قطعْتُها والزمهريرُ ما زهَرْ

وقد يستشهد الشيخ اطفيش أيضا بأشعار لعلماء اللغة من أجل تأكيد قاعدة لغوية تعرّض لها من خلال تفسيره لآية ما، ومثال ذلك نجده عند تفسيره لأول سورة غافر وهو قوله تعالى: ﴿**حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[2]، حيث تعرّض لصيغة الجمع في لفظ حمْ وقال إنّه «..جمع على القياس على فواعيل، بإبدال ألف (حا) واوا، وهو عربي..»[3]، وأورد أشعارا لأبي عبيدة اللغوي[4]، يقول فيها:

حلفت بالسبع التي تطوّلت ويمين بعدها قد أمنيت

وبثمان تُلِيَت وكُرّرت وبالطواسين التي قد تُليت

1- سورة الإنسان، آية 13. ينظر: **تيسير التفسير**، ج 6، ص 443.

2- سورة غافر، الآية 1.

3- اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 5، ص 97.

4- ولعله أبو عبيدة معمر بن المثنى المشهور في عالم اللغة، (ت210هـ)

وبالحواميم اللواتي سُبّعت وبالمفصّل التي قد فُصّلت

وكما أنه رحمه الله لا يهتم بالاستشهاد بشعر الشعراء عند تقرير قاعدة لغوية، فإنّه قد لا يعير اهتمامه أيضا لصحة الأشعار المستشهد بها أو ضعفها، وربما كانت مصنوعة أو منتحلة، فهو يتجوّز في الاستشهاد بأشعار المجهولين[1]، لمجرد موافقتها لما يريد أن يقرره من قواعد اللغة أو معنى اللفظة من الآية.[2]

وإلى جانب اهتمامه بالقضايا اللغوية المحضة، أو الصناعة النحوية بالخصوص، فإنّه قد استشهد بأشعار فحول الأقدمين أمثال الخنساء وزهير وامرئ القيس، وبأشعار المتأخرين، مثل الكميت وجرير والمتنبي وغيرهم. وكثيرا ما يستشهد بأشعار لا يذكر أصحابها، وربما استأنس أيضا ببعض أشعاره الخاصة.

4- التأويل عند الشيخ اطفيّشْ وصلته باللغة: وغير بعيد عن المصدر اللغوي في التفسير نجد الشيخ اطفيّشْ قد توسّع في اعتماده على العقل في تفسيره للقرآن الكريم، وفي فهمه وتأويل المتشابه من الآيات خاصّة، لما للعقل من علاقة باللغة أساسا. وهو ما يظهر لنا جليّا من خلال موقفه من التأويل، حيث يبدو في موقفه صريحا عندما يفرّق بين مفهومين للمتشابه، إذ نجده في تفسيره الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[3]، يجعل لفظ "متشابه" في الآية محتملا لتفسيرين، أحدهما أنه لا يعلمه إلا الله، وذلك لشدة غموضه وإبهامه، وعليه فلا يجوز تأويله، وهو

1- لقد ذهب فريق من النحاة إلى جواز الاستشهاد بأشعار أصحابها مجهولون. فقد استشهد سيبويه في كتابه بنحو خمسين بيتا مجهولة المصدر. يراجع: محمود زلط، **منهج القرطبي في التفسير**، دار الأنصار، القاهرة، (د.ت) ص 286

2- ينظر: **تيسير التفسير**، ج 5، ص 511.

3- سورة آل عمران، آية 7.

مذهب جماعة من السلف، كأُبيّ بن كعب وعائشة رضي الله عنهما[1]. والآخر أنه مما يعلمه العلماء، وذلك بمزيد تأمّل وإمعان[2]. وعليه، فإنّ التأويل يكون جائزا في حقه، وقد نُسب هذا المذهب إلى ابن عباس فيما نقله عنه مجاهد، أنه قال: « أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»[3]. وابن عباس قد خصّه رسول الله عليه وسلّم بالدعاء المشهور الذي قاله في حقه: «اللهم فقّهْه في الدين وعلّمْه التأويل»[4].

وانطلاقا من هذا، فإن الشيخ اطفيّشْ قد أطلق العنان لعقله في تأويل المتشابه وطلب معناه، والغريب أنّه لم يقتصر في ذلك على النوع الذي يكون حكمه ردّه إلى المحكم، ولكنه حاول أن يجاري جماعة من المفسرين المتقدمين[5]. في تأويل بعض الآيات المتشابهات التي لا يعلمها إلا الله، كما فعل مع الحروف المقطّعة على سبيل المثال. وهذا بالرغم من أنّه قد أعلن بنفسه وفي أكثر من مناسبة، أنها مما استأثر الله بعلمه، ومع ذلك فقد حاول أن يتجوّز في محاولة لفك رموز هذه الحروف وربّما يفعل ذلك معتدًّا بنفسه أحيانًا. في حين نجده يعترف بالعجز أمام الله في طلب معناها أحايين أخرى،

1- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ج 3، ص 138.

2- اطفيش محمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، ج 1، ص 442.

3- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 1، ص 349/348.

4- ابن كثير، **المرجع نفسه**، ج 1، ص 349/348.

الحديث أخرجه: البخاري ومسلم في صحيحيهما. ينظر:

- فتح الباري، كتاب الوضوء، باب10، حديث رقم 143، ج 1، ص 294.

- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب30، حديث رقم 2477، ج 4، ص 1927.

5- لقد خاض في هذا هذا كثير من المفسرين، على الرغم من إجماع العلماء على أنها من المتشابه المبهم. ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 36 وما بعدها. - السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج 3، ص 334 وما بعدها

والحق أننا لا نعرف السبب الذي أدّى به رحمه الله، إلى مثل هذا التجوّز[1]، إلاّ ما ذكرناه من كونه مجاراة لمن جاء قبله من المفسرّين القدامى.

على أنّه وبالرجوع إلى تفسير الشيخ نجده لا يدّخر جهدا في طلب معنى المتشابه من آيات الصفات بواسطة آلية التأويل القائمة على التوجيه اللغوي في الغالب، وخاصة ما يوهم من الآيات في ظاهرها التشبيه في حق الباري جلّ وعلا المتصف بالوحدانية المطلقة، والمنزّه عن كل نقص[2]. هذا في حين نجده لا يؤوّلها أحيانا بل يورد معناها السطحي، وهو ما جعله يقع رحمه الله في إثبات الجسمية للعرش، وذلك حين فسّر قوله تعالى من سورة طه: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[3].

وعلى كل حال فالشيخ اطفيّشْ كغيره من المفسّرين قد تعامل مع نصوص القرآن الكريم بعلم وفقه، مستعملا جميع مصادر التفسير المتعارف عليها بين العلماء، وقد كان موقفه من التأويل دليلا ساطعا، يبيّن لنا كيفية إعماله للعقل، والحدود التي تضبط هذ العقل، فإذا كانت اللغة والبلاغة أو المجاز على وجه التحديد، قد فتحا له مجالا واسع في تأويل بعض الآيات المشكلة أو الغريب لفظها، فإن العقل هو أيضا وعن طريق مبد التنـزيه المطلق الذي يتمسك به الإباضية في مفهومهم لعقيدة التوحيد، قد فتح له المجال لسبر أغوار المتشابه الغامض، وخاصة منه آيات الصفات الخبرية التي يفيد ظاهره

1- ينظر: **تيسير التفسير**، ج 1، ص 438/437.

2- يراجع في هذا الموضوع: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة نزه، مجلد6، ص 4402 – يقول: "التنـزيه تسبيح اللـه تعالى وإبعاده عما يقول المشركون،.. وتنـزيه اللـه تبعيده عما لا يجوز عليه من النقائص". الرازي فخر الدين، **أساس التقديس**، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، 1986، ص 15 وما بعدها. ينظر: **تيسير التفسير**، ج 6، ص 390. ج 2، ص 123. ج 5، ص 38/37. ج 5، ص 610

3- سورة طه، آية 5. ينظر : **تيسير التفسير**، ج 4، ص 88/87.

التشبيه والتجسيم والتحيّز.. وغيرها من المعاني التي لا تتفق ومعنى آية التنـزيه، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[1].

وفي الأخير يمكن القول إنّ القطب اطفيّش لم يكن بدعا من الأمر في عالم التفسير، وإنّما كان رحمه الله يصيب إصابة العالم العارف، ويخطئ خطأ المجتهد، كما هو الحال بالنسبة لسائر المفسرين، وإن غلب عليه المنهج التقليدي العام القائم على تحليل آي القرآن الكريم. باعتماد شتى الأدوات التفسيرية المتعارف عليها، سواء من طريق النقل أم من طريق العقل، وفي طريق العقل وجدنا كيف أنّ اللغة كانت بارزة في تفسيره إلى جانب علوم القرآن الأخرى، ممّا يدلّ على حرصه على استيفاء جميع أدوات التفسير من أجل بلوغ الهدف في فهم وتبيين معاني النص القرآني.

1- سورة الشورى، آية 11.